مأساة من سوفوكليس

أنتيجـــونى

للأستاذ دريني خشبة

سوفوكليس : ولد سوفوكليس سنة ٤٩٦ ق . م ، ومات سنة ٤٠٦ أى أنه عاش عمرا طويلا مباركا قضى منه أكثر من ٦٥ سنة فى إنتاج أدبى متصل . ولم يصلنا من مآسيه التى أربت على المائة غير سبع فقط إحداها مأساة اليوم (أنتيجونى) ، التى تعتبر أطرف تحفة فى الأدب الكلاسيكى المسرحى . وسوفوكليس هو تلميذ إسخيلوس ، وقد ظل يقلده ويمشى على دربه أكثر من عشرين عاما ثم استقل بعبقريته وطرائقه فى الأدب ، ولكنه عاد فقلد منافسه الأكبر يوريبيدز . ولم يحدث سوفوكليس ثورة ما فى روح الرواية المسرحية ولكنه ثار بالمسرح نفسه من الوجهة الفنية (التكنيكية) فأكثر من الممثلين وعدد من المناظر وقلل من أهمية الجورس ، وقد ساعدته ثروته وعيشته الرافدة على تغذية المسرح برواياته الهادئة التى كان يخدم بها الفن من حيث هو فن خالص ، ولا يبتغى بها ثورة على التقاليد أو إحداث تغيير فى نظم الحياة . وكان مؤدبا مع الآلهة ، فلم يصنع ماصنعه إسخيلوس مع ربات الدهر حين سفه منطقهن فى محاكمة أورست مثلا . وسوفوكليس هو أستاذ شاكسبير من حيث تركيز البطولة فى أكثر مآسيه فى المرأة وسترى ذلك فيما نلخصه لك من المآسى . ولم يتقيد سوفوكليس بالدرامة الثلاثية Trilogy مثل أستاذه ، ولكنه فضل المأساة المستقلة الواحدة وإن كان قد كتب ثلاث مآس فى موضوع واحد متصل ، فانه كان يجعل كلا من أجزاء هذا الموضوع فصلا مستقلا بنفسه كل الاستقلال عن الفصلين الآخرين ، وقد تعلم سوفوكليس الموسيقى فى صغره وحذقها وترأس فرقة موسيقية فى الاحتفال بذكرى « سلاميس » وكان على قسط كبير من الجمال فى صباه ، وكانت أدوار النساء فى بعض الدرامات — ومنها دراماته — توكل اليه لتأديتها لهذا السبب . ولم يشترك فى حروب وطنه (أثينا) لاعتباره من كبار الأعيان ولأنه كان صاحب مصانع الأسلحة التى تزود الجيوش بكل ما تحتاج من عتاد . وقد تورط بسبب حياة الترف التى كان يحياها فى غرام آثم كلفه كثيرا من ماله ، فاضطر ابنه الى مقاضاته وطلب من المحلفين الحجر عليه ، ولكن سوفوكليس عرف كيف يدافع عن نفسه حتى برئت ساحته ، ثم استقام بعد ذلك . وقد فاز سوفوكليس على إسخيلوس للمرة الأولى سنة ٤٦٨ بدراماته المفقودة (تريتوليموس) ثم فاز فى عشرين مباراة بعد ذلك وعين سنة ٤٤٠ أميرالا للاسطول (وإن لم يخض حربا ما) ، وعين سنة ٤٤٣ عضواً فى مجلس الوكلاء (مجلس العشرة) ويحبه أن يكون أقوى شخصية تمثل عصر بركليس بطوله . ومات قبل أن يشهد سقوط أثينا

— ١ —

حينما اكتشف أوديبوس السر الهائل ، وعرف أنه قتل أباه وتزوج من أمه ، وأولدها ولديه وابنتيه ، جن جنونه ، وسمل عينيه ، وهام على وجهه فى الأرض حيران ، وتبعته ابنته التاعسة أنتيجونى ، لتهديه سبيله الى غابة كولونوس ، حيث غالته ربات الدهر بما لم تجن يداه !

وعادت أنتيجونى لتجد أخويها يقتتلان من أجل العرش . . . . (١)

وقتل الاخوان المتحاربان كل يد الآخر فى مبارزة مشئومة واستوى كريون على عرش طيبة ، وأصدر أمرين كل منهما نقيض الآخر

أمر بأن تحتفل طيبة كلها بملكها السابق إتيوكليز ... أما أخوه ... أما پولينيسز ... فيترك فى بطحاء طيبة جزر السباع تنوشه جوارح الطير وكلاب البرية ، من غير أن تقام له الشعائر الدينية التى تقام لعباد الآلهة المؤمنين ، ومن غير أن يضم رفاته قبر ، أو يحثى عليها تراب ! وقضى أن كل من يجرؤ على مخالفة هذا الأمر فجزاؤه القتل فى أبشع صورة . والتنكيل والتمثيل !

— ٢ —

« أنتيجونى وأختها اسمنيه أمام القصر الملكى بطيبه »

— « أختاه ! إسمنيه ! أهكذا قضت السماء أن نتجرع . أنا وأنت ثمالة الكأس ، والنطف الأخيرة من آلام أوديبوس ! ألا حدثنى يا أختاه : هل بلغك الامر المأفون الذى أصدره كريون الملك بخصوص أخوينا ؟ »

— « أى أمر يا أختاه !

— « لهذا جئت معك الى هنا كيلا يسمع نجوانا أحد !

— « إذن . . . تكلمى ! إن نظراتك المضطربة تشف أنبا هائلة !

— « لماذا يُفرّق كريون بين الموتى فى حقوق السماء المقدسة ؟ لقد أمر أن تحتفل طيبة بأسرها بجناز إتيوكلز . . . فى حين تترك جثة پولينيسز فى عراء طيبة لجوارح الطير ، وسباع البرية ، من دون ما دفن ولا إقام شعائر ... حتى التراب ... لقد أبى أن يُحثى عليه التراب يا أختاه ! والآن ! لقد أنبأتك بكل شىء ! فهل تبرهنين على كرم أرومتك ! وشريف عنصرك ، فتعاونينى فيما اعتزمت ، أم ...

(١) لخصنا هذه الحوادث فى إسخيلوس (الأعداد الأخيرة السابقة من الرسالة)

وا شؤماه ! وهل بيد ضعيفة مثلي حل أو ربط ؟ ! ما ذا ترينني أصنع ؟

— « ألا تقاسمينني حلو هذا الأمر ومره ؟

— « ما ذا تعنين ؟

— « نتقاسم ، أنا وأنت ، فنذهب الى أخينا من فورنا هذا فندفنه ؟ ! . .

— « ندفنه على الرغم من نذير الملك ؟ أهذا رأيك ؟

— « إي وايم السماء ! سأدفن أخي وأخاك فاما امتنعت فاني لن أنكص ، ولن أخون إخوتي وحناني وكبرياني ودمي ! !

— « مجنونة ! ! وكريون ! أما تبالين أوامره ! »

— « كريون ؟ ! وهل له الحق في منعي من القيام بشعائر ديني نحو أخي ؟ ! »

— « أختاه ! أتتيجوني ! قليلاً من الحكمة يا أختاه ! أذكري كيف كانت نهاية أبوينا العزيزين ! أذكري كيف شنقت أمنا نفسها حين علمت أن زوجها هو ابنها ؟ واذكري كيف سمل أبونا عينيه وذهب سمك إلى كولونوس ليتحسى كأس المنون ! واذكري أيضاً كيف اقتتل أخوانا وقتل كل منهما الآخر ! أفلم يبق وراء كل أولئك إلا أن نلقى بأيدينا أنا وأنت إلى التهلكة ؟ ! أما عن نفسي ، فاني أفضل الخضوع لأمر ولي الأمر ، فاني امرأة ولم تخلق النساء لمشاكسة الرجال !

— « إذن ... فلن أرغمك على شيء ... وحسب هذه اليد الكريمة أن تقوم بالأمر كله وحدها ! يا للفخر أن أضطلع بكل شيء ثم أموت ! كم تشيع الكبرياء في نفسي حين ألقى أخي في الدار الآخرة وقد أديت له هذا الحق بمفردي ؟ ! إن هذه الحياة لابد أن تنتهي ، فلم لا تكون نهايتها هذه الجريمة المقدسة ؟ أنت تأبين أن تزدري قوانين الأرض ، ولكنك لا ترفضين أن تحتقري مع كريون شرائع السماء ! فهنيئاً لك ! يهنيك ما اخترت لنفسك يا أختاه !

— « أنا لا أزدي ولا أحتقر ، ولكن أخشى ثورة الأولياء !

— « كأني بك تعتذرين عن جبانتك ! اطمئني ! سأذهب وحدي لأدفن جثمان أخي !

— « يا للآلهة ! كم أخشى عليك !

— « لا تضيعي خشيتك ومخاوفك عبثاً ! عليك نفسك !

— « إذن لا تبوحي بسرك لأحد ، وسأكتم أنا الأخرى كل شيء !

— « بورك فيك ! بل تحدثي به لكل من يلقاك . . . للناس أجمعين !

— « أنت تتحدين خصومك ! يا للطيش !

— « تحد يسر قوماً آخرين . . .

— « هذا إذا نجح قصدك ، وتم تدبيرك ... على أنني أراك تضربين على غير هدى »

— « حسنا ! سأحاول ، فاذا فشلت فقد أديت واجبي »

— « بل ينبغي ألا يحاول الانسان المحال »

— « ها . ها ... إن كلامك جدير باحتقاري بقدر ما هو خليق بمقت أخيك . . . اصمتي ! على وحدي وزر ما أنا قادمة عليه . . . ولن يحزمني القضاء من موتة شريفة خالدة ! »

— « لتذهبي ! إنه يبدو لي أن لا سبيل للوقوف بسبيلك ، ياطائشة ! وإن تكن جراءتك آية وفائك وبرهان محبتك ...

(تخرج كل منهما من ناحية)

— ٣ —

ويقبل الخورس (عجائز طيبة) فينشدون ويهزجون ، ويتغنون آلام طيبة ذات سبعة الأبواب وأشجانها ، ويرددون ألحان المأساة الباكية . . . مأساة أوديب ، ثم يلمح رئيسهم كريون ، ملك طيبة وطاغيتها . مقبلا ، فيصمت ويصمتون

(يدخل كريون)

— « أيها الأصدقاء ! إخواني أبناء طيبة الأخيار ! إصغوا إلي ! لقد تمت المأساة ، وانقرض الذكران من نسل لايوس ، وبالأمس ما ضرجوا ثرى الوطن بدماء لا يُرضى الآلهة إهراقها ، وها قد آلت السلطة إلي ، سلطة الحكم ، وسلطان الملك ، وسلطان الملك محك الرجال ؟ وإني آخذ فيكم بخطة هي الى خيركم أقرب ، وعلى وطنكم أجدى ؛ لا أحب الجبان ، ولا أوقر رجلا يؤثر صالحه أو صالح أصدقائه على صالح الوطن . . . الوطن سفينة الجميع ، فيجب على الجميع هدايته الى شاطىء الأمان ، ويجب أن نزيد دائما في عظمة طيبة وعنفوانها ومجدها ! ولقد علمتم ما كان من ولدي أوديبوس ، وعرفتم كيف كان إيتوكليز يفدي بنفسه بلاده ، ويرد عنها جحافل الأعداء الذين جردهم عليها پولينيسيز . . . الخائن ! الذي أشقى أمته وأهان دولته وكان عليها